

الفصل الثاني

أوجست كومت وفلسفته *

« لقد أخلصت حياتي لأستنبط من العلم الثابت
الأسس اللازمة للفلسفة الصحيحة التي تسمح لي
أن أقيم الديانة الحقّة على موجدتها » .

١

أسس فلسفة كومت

كل مذهب جديد في الفلسفة يمت ؛ وإن ظهر فذاً غريباً ؛ بلحمة نسب
ضيقة للمذاهب التي سبقتة ، كما يرتبط بما حوله من الأصوات العامة ارتباطاً
يعدل تلك اللحمة متانة واتصلاً وإن كان أقل منها ظهوراً ووضوحاً . فهو
متضامن مع الشؤون الاجتماعية كافة تضامناً يجعل تأثيره بما في البيئة المحيطة
به من المظاهر الدينية والفلسفية والاقتصادية والعقلية لا يقل عن أثره فيها .
لذلك ليس يكفي درس المذهب الجديد على أنه وحدة قائمة بذاتها مستقلة

(٥) كان للفلسفة الواقعية التي يتصل نسبها بالفيلسوف الفرنسي العظيم أوجست كومت أثر بالغ
التضكير الإنساني في الأجيال الأخيرة . لذلك تناوذا الفلاسفة في مختلف الأمم بالتأييد وحاول البعض
نقدها . وقد وضع الأستاذ الكبير ليفي برونل Levy Bruhl من أساتذة السوربون بفرنسا كتاباً عن
(أوجست كومت وفلسفته) ووضع لهذا الكتاب مقدمة عن الفيلسوف العظيم وعمله وصف فيها حالة
العصر الذي ظهرت فيه الفلسفة الواقعية كما جاء بتاريخ صاحبها . ولعظم فائدة هذه المقدمة ننشر
ترجمتها العربية لقراء السياسة الأسبوعية . (من العدد ٧٨ في ٢ سبتمبر سنة ١٩٢٧ والعدد
الذي يليه) .

عما سواها . بل يجب النظر إليه ضمن المجموع العام الذي لا تتضح أهم أركانه إلا به .

وهذه القاعدة - وهي إحدى قواعد الطريقة التاريخية التي أكثر كومت من ترديدها - تنطبق تمام الانطباق على مذهبه . فمراجعة نصوصه وحدها لا تكفي لفهم نظريته فهماً تاماً ، ولا لتقدير فكرته العامة على وجه الضبط ، ولا تكفي لمعرفة الأسباب التي أدت بالمؤلف ليجعل لبعض نظرياته خطراً خاصاً . وللوصول إلى ذلك كله يجب أن نقف مع مراجعة النصوص على الظروف التاريخية التي ظهر المبدأ في أيامها ، وعلى حركة الأفكار العامة التي عاصرتها ، وعلى المؤثرات التي أثرت في نفس الفيلسوف أياً كان نوعها .

فالعصر الذي ظهرت فيه الفلسفة الواقعية (الوضعية) كان متأثراً بالثورة الفرنسية أكثر مما كان متأثراً بأى حدث آخر . وذلك ما قرره كومت صراحة . فلولا الثورة ما ظهر مبدأ التقدم ولا كان العلم الاجتماعي الذي بنى عليه ولا الفلسفة الواقعية التي جاءت على أثرهما . لكن هذه الهزة الاجتماعية غير العادية أحدثت حركة كبيرة في دائرة المضاربات الفلسفية والسياسية ، وقد اختلفت نتائج هذه الحركة باختلاف قوة الأذهان التي صادفتها وعبقريتها وإن كانت بعض الظواهر الخاصة قد لفتت كبار المفكرين وضعافهم على السواء . من ذلك مثلاً أن كان كل مفكر من الذين ظهروا في بدء القرن التاسع عشر يسائل نفسه : أى نظام يجب أن يقوم على أثر الثورة ؟ ولم يكن الشكل الذي يريدونه للحكومة كل همهم من سؤالمهم ، بل كانوا يريدون أيضاً الاهتداء إلى المبادئ الأساسية لنظام الاجتماع ، وكانت هذه المسألة لا تحتمل في نظرهم إمهالاً من الوجهة العملية كما كانوا يحسبونها أم المسائل من الجهة النظرية . وهذه المسألة في صورتها المختلفة هي التي شغلت « شاتوبريان » كما شغلت « فوربيه » « وسان سيمون » وتعلق بها « يوسف ديمتر » كما عقلها « كوزن كومت » .

على أنهم كانوا جميعاً متفقين على نقطة أولية هي وجوب التجديد .
 فالعصر المضطرب الذى تداعى يجب أن يعقبه عصر نظام . وعبارة سان سيمون
 فى هذا المعنى قوية غاية القوة إذ قال : « لم تخلق الإنسانية لتقيم فى الخرائب
 والأطلال الدارسة » . لكن الاضطراب الثورى والرجة التى تلتها والهزة
 الاجتماعية التى جاءت على أثرها كانت كلها من القوة والشدة بحيث
 لم يستطع أحد معه أن يقدر نتائج الثورة تقديراً دقيقاً . فكم من النظم
 كان يظن أنها تحطمت فإذا هى لم يصبها إلا بعض الاضطراب . وكثير من
 النظام القديم تخلى الأزمة سلباً لم يصب بأذى . غير أن هذه الظاهرة
 التى لم تفت رجال سنة ١٨٣٠ كانت لا تزال غامضة أمام الجيل الذى
 سبقهم ، فلم يميزها وخيل إلى أهله أن النظام القديم دكت أعاليه وأسافله
 وأن واجباً عليهم لذلك أن يعيدوه أو يخلقوا نظاماً اجتماعياً جديداً ، وكانوا
 فى ظنهم هذا محتفظين بروح الثورة التى اعتبرها أهلها كما اعتبرها
 العالم المتمدن فاتحة لتشييد الإنسانية نظاماً سياسياً واجتماعياً جديداً ، لكن
 هذا المطمع العظيم لم يتحقق برغم أعمال الجمعيات الثورية وكفاية النوابع
 الذين كانوا فى « الكنفنسيون » Convention ؛ بل تعاقبت الديركتوار
 Le Directoire والإمبراطورية بعد ذلك وبقيت المسألة كما كانت : كيف

السييل إلى تنظيم الجمعية بعد ما انهار النظام القائم ؟

لذلك انصرفت المضاربات الفلسفية فى مبدأ القرن التاسع عشر إلى
 المسائل الدينية والاجتماعية . صحيح أن تقدم العلوم الواقعية تقدماً واضحاً
 مطرداً كان أمراً لا ريبه فيه ولا يجوز إنكاره فى بحث غايته استظهار فلسفة
 أوجست كومت . لكن عناية كومت بالمسائل العلمية كل تلك العناية إنما كان
 يقصد بها إلى حل المسألة الاجتماعية وكانت كل غايته من الفلسفة أن يضع
 الأسس العقلية لبناء الجمعية وأن يضع كذلك قواعد دين يحل محل الكتلكة
 التى كانت قد أتمت فى نظره مهمتها .

قال رانك : « القرن التاسع عشر قرن إصلاح » وتلك عبارة دقيقة تصور أحد مظاهر هذا القرن الخطيرة من جهته التاريخية . ولقد أراد به أهله أن يكون عصر إصلاح حقاً . فكان الإصلاح وجهة معظم المبادئ الفلسفية التي صورت كنه طبيعة ذلك العصر ، على أن هذا الإصلاح كان يثبت غير قليل من النتائج التي اكتسبت في أثناء الأزمة وبعضها ، كما أن نظريات جديدة استدعاها تقدم الصناعة الكبرى جعلت بعيدى النظر من المفكرين يحسون تمام الإحساس بأن العصر الذى رغب الناس أشد الرغبة فى انتهائه لم يكن فى الحقيقة إلا عند أوله ومبثته .

واعتقد أوجست كومت كما اعتقد كثير من معاصريه أنه مبعوث لوضع « النظام الاجتماعى الجديد » . لكنه كان يخالف من سواه فى النظر . فكل من أولئك المصلحين كان يبدأ بوضع ما يرتثيه من مشروعات النظم صالحاً لحل المسألة الاجتماعية ويصرف كل مجهوداته بعد ذلك لتبرير رأيه . ولما كانت هذه المسألة فى نظرم لا تحتل إمعاناً فقد قصروا أفكارهم عليها ، أما كومت فكان يرى هذه الطريقة عقيمة محققة الخذلان . ذلك بأن المسألة الاجتماعية لا يمكن حلها مباشرة ، بل يجب قبل التعرض لها حل مسائل أخرى نظرية صرفة ، وهى هاته المسائل التى يجب البدء بها إذا كان للإنسان هم غير الاستكثار من الأرباح السياسية والأوهام الاجتماعية .

فالنظم عند كومت تابعة للأخلاق ، والأخلاق تابعة للعقائد . ومن العبث وضع مشروعات نظم جديدة ما لم تكن الأخلاق قد رتبت ونظمت وما لم يكن أساس هذا النظام مذهباً فكرياً قد تم وضعه وقبلته النفوس كلها على أنه الحق وآمنت به ما آمنت أوروبا بآى الكتلركة فى القرون الوسطى . والمسألة الاجتماعية تبقى لا حل لها ما لم توضع فلسفة جديدة تكون أساساً لحلها .

لهذا نزع كومت إلى الفلسفة وقصر نفسه أول الأمر عليها ، وكان مما

كتب في سنة ١٨٢٤ : « إني أعتبر كل مناقشة تقوم بشأن النظم من أتفه السفاسف ما لم يكن نظام الجمعية من الوجهة الروحية قد كمل أو قارب الكمال » (١).

طرافة كومت أنه جعل يبحث في العلم والفلسفة عن المبادئ التي يبنى عليها النظام الاجتماعي الذي كان غاية كل مجهوداته ؛ وبذلك خالف معاصريه من المصلحين في الوسيلة وإن اتفق معهم في الغرض . فهو مثلهم يريد وضع سياسة معينة . لكنه يريد لها سياسة وضعية أساسها نظام أخلاق ومذهب فلسفي وضيعان كذلك . ولئن كانت هذه السياسة هي علة وجود المذهب ومن أجلها وضعه كومت فإنها إذا فقدته فقدت مبرر وجودها ومصدر سلطانها وأصبحت من شوارد الخواطر . فالفلسفة لازمة لتكون أساساً للسياسة ، كما أن السياسة لازمة لتكون الفلسفة وبعث روح التناسق والوحدة فيها .

والآن فأى سبب دعا كومت ليتعرض لتلك المسألة الكبيرة التي شغلت أذهان كل معاصريه على نحو اختص به هو من دونهم ؟ ليس في مقدورنا بسط ترجمته هنا بسطاً مستفيضاً يفيض على هذه المسألة نوراً يجلوها ، ولكننا نكتفي فنذكر أنه كان من أسرة كاثوليكية ملكية . وعلى الرغم مما ذكره من تركه عقائد عشرته السياسية والدينية لأول ما بلغ الثالثة عشرة من عمره فإن العقائد الدينية لم تمح من نفسه بمقدار ما كان يظن . فقد بقي كل حياته شديد الإعجاب بالكاثوليكية ، وهو لا ينكر ذلك ولكنه يعزوه إلى ما تأثر به من كتابات جوزف دمر . غير أنه مهما يكن قد تذوق كتاب (البابا) فإن هذا الميل الخاص يرجع بعضه إلى ما تركه الطفولة من آثار بقيت مستكنة في نفس حساسة سريعة التأثر .

وكانت الرياضيات أول ما اشتغل به ذهنه بطريقة جديدة . فلما دخل

(١) خطابه إلى فلا صفحة ١٥٦ في ٧ و ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٢٤ .

مدرسة الهندسة ؛ وقد قبل فيها وسنه دون السن القانونية بسنة ، بدأ يدرس العلوم الطبيعية وجعل في الوقت نفسه يفكر فيما كتب مونتسكيو وكوندورسيه ، ثم مال إلى الفلسفة بمعناها الحقيقي وانصرف إلى قراءة الأيقوسيين وفرجينز وآدم سميث وهيوم ، وتبين أن هذا الأخير أرقى من سائرهم بكثير . فلما خرج من مدرسة الهندسة بقى في باريس وجعل في وقت واحد يلقي دروساً تقوم بمعيشته ويكمل دراسته العلمية بالتلقى على دلامير وبلانفيل والبارون تار ، وبإدمان قراءة فونتيل ودالمبرت وديدرو ؛ ويعمن بوجه خاص في قراءة كوندورسيه الذي استجمع مادة فلسفة القرن الثامن عشر وأوضحها . وفيما كان يقرأ ديكارث ومن جاء بعده من كبار الرياضيين كان يتتبع بتمعن والتفات أعمال الطبيعيين والبيولوجيين أمثال لامارك وكوفييه وجال وكابانيس وبشا وبروسيه وكثيرين غيرهم ، على أن علمه نما لهذه العلوم الجديدة من الأهمية الفلسفية مما أشار إليه ديدرو من قبل لم ينسه درس المسائل التاريخية والاجتماعية . فقد قرأ الأملين Les idéologues أمثال المسيوبونالد - المفكر العظيم النشاط - وجوزف دمتر الذي ترك في نفس كومت أكثر من كل كاتب آخر ، أعمق الأثر وأبقاه .

وإذن فلقد كان كومت ، من قبل أن يعرف سان سيمون ، ملماً بقسم عظيم من المادة التي كانت قوام مبدئه في المستقبل . وذلك ما تشهد به رسائله إلى صديقه فاللا . ولكن مؤلفاته لم تخرج إلى ذلك الحين عن موضعين مختلفين . فكان بعضها خاصاً بالمسائل العلمية (الرياضيات والطبيعة والكيمياء والعلوم الطبيعية) والبعض الآخر أميل للمسائل السياسية (كالتاريخ والسياسة والمسائل الاجتماعية) .

وقد التقى كومت بسان سيمون سنة ١٨١٨ فسحر به وتهالك عليه وجعل يشتغل معه أربع سنوات كان في خلالها يحبه ويحترمه احترام التلميذ

أستاذه ، ويغذو نفسه من أفكاره ويشترك وإياه في مؤلفاته ومشروعاته ، ويدعو نفسه (تلميذ المسيو سان سيمون) ، لكنه انفصل عن هذا الأستاذ المحترم المحبوب في سنة ١٨٢٢ . فماذا ترى كان قد حصل ؟

إن الأسباب التي تقدم بها كومت لم تكن إلا ذات أهمية ثانوية . ولكن الأستاذ وتلميذه كانا لا بصد مفرقين عاجلا أو آجلا لما بينهما من التباين المطلق . فلقد كان سان سيمون لنبوغه وحدة خاطره يلقن بالكثير من الأفكار والآراء الجديدة التي ينتج في المستقبل أكثرها ويفرخ . ولكنه كان سريع الإثبات ، قليل التذليل ، ليس عنده من الصبر ما يسمح له بالوقوف طويلا عند موضوع معين ليتعمق في النظر فيه نظراً مرتباً . أما كومت فكان على العكس من صاحبه يرى رأى ديكارث أن الفهم واجب كل الوجود في المسائل العلمية وأن (التماسك المنطقي) أكد دليل للحقيقة . لهذا لم يكن له أن يكتبني بمقالات سان سيمون المتقطعة زمناً طويلا ، ولكنه أخذ ما صح من تلك الإلهامات المتواترة غير المرتبة وإن حسب أن مذهبه إنما هو الذي أثبت لها قيمتها العلمية لأن مذهبه هو وحده الذي استطاع أن يرتبها ويردها إلى أصولها . من ذلك يظهر أن أثر سان سيمون في كومت كان عظيماً ، وأن عبقرية كومت الفلسفية مؤكدة لا يأتيها الشك . وأكثر ما كان من أثر سان سيمون أنه أوحى إلى كومت بمجموع من الأفكار العامة والآراء الخاصة التي أخذ بها فيما قرر من فلسفة التاريخ ، كما أنه عرف كيف يجمع بين الفرعين اللذين أُلّف فيهما من قبل مفرداً كلا عن الآخر ، وذلك باستنباط علم يكون اجتماعياً وسياسة تكون علمية . ولولا سان سيمون لما جال بخاطر كومت أن يوفق بين هذين الفرعين من فروع العلم بعد أن كان يعمل في كل منهما مستقلاً ، أو لجاءه هذا التوفيق متأخراً . لهذا ليس لنا أن نغصط سان سيمون ما يعترف له به كومت نفسه من أنه وجه تلميذه في أكثر السبل موافقة لذهنه ولنبوغه . ولم تتم الخلطة الفكرية بينهما يوماً ما . وإذا كان كومت قد وصل إلى

دخيلة أفكار سان سيمون (وإن لم يكن قد أخذ بها جميعاً) فإن سان سيمون أساء فهم طرف من فكرة كومت لضعف تربيته العلمية حتى إن ما كتبه عن قانون الجاذبية التامة لا بد أن يكون قد استثار اشمئزاز كومت . لهذا لم يترك كومت دراسته الرياضية حتى حين كان متحمساً لسان سيمون منهالكاً عليه بكل ما فيه من شباب وعطف . ولقد كتب لفالوا في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨١٩ يقول له : « إني اليوم وسابق دائماً أعمل في فرعين من فروع البحث : الفرع العلمى والفرع السياسى . ولولا ما أذكره دائماً من فائدة العمل العلمى لبنى الإنسان لما اهتمت له بل لعدلت به حل الألباز اللفظية . ثم إن بى لبغضاً شديداً لما لا أرى له فائدة من الأعمال العلمية قريبة كانت هذه الفائدة أو بعيدة . أما الأعمال السياسية فيأخلفنى إليها أنها تستهوى الفكر وتشحذ الذهن ولولا ذلك لكنت أكثر هواده فى الاشتغال بها برغم كل ما عندى من ميل للإنسانية »^(١) فلما أرسل لصديقه بعد سنة من ذلك مجموعة كراسات سياسية ميز فيها بين ما له وما لسان سيمون أخبره أنه فضلاً عن هذا يشتغل يجد فى أعماله الرياضية وأنه يريد الدخول فى منافسة أعلنها (الانستيتو) L'institut ، وقد كان يطمع من ذلك فى الدخول فى أكاديمية العلوم .

وفى سنة ١٨٢٢ ظهر كتيب كومت (فكرة عن المسائل العلمية اللازمة لإعادة نظام الجمعية) وفيه ذلك التوفيق بين فرعى العلوم . وقد ذكر فى مفكرة كومت مبيناً على اكتشافه : ترتيب العلوم وقانون الحركة الاجتماعية Dynamique Sociale . ولئن لم يكن الكتاب هو السبب الأهم فإنه كان الفرصة التى حدثت عندها القطيعة ما بين كومت وسان سيمون . فقد رأى كومت تلك اللحظة حاسمة فى تاريخية تفكيره إذ حوى هذا الكتيب مجموع نظريته المقبلة . ثم دلت المقدمة التى وضعها له سان سيمون على أنه

لم يفهم مرماه . فاستقل كومت بعد إذ عثر فيها على ما كان يبحث عنه من سنين من غير أن يتبينه وكرس بقية حياته لما وصل إليه وما كان قد وضع له فكرته ، ولم يبق له أن يتساءل كيف يوفق بين بحوثه العلمية ودراسته السياسية . وقد وضع تدرج العلوم الفلسفي جاعلاً الطبيعة الاجتماعية في مركز التاج منها .

كتب كومت في ٨ سبتمبر ١٨٢٤ ما يأتي : « عن لي في أثناء أعمالى الفلسفية الكبرى أن أنشر بعض كتب خاصة عن النقط الرئيسية للرياضيات مما كنت قد تبينته من زمن طويل ، ثم وصلت أخيراً لربط هذه النقط بأفكارى العامة عن الفلسفة الوضعية ، فسمح لي ذلك أن أستظهرها من غير أن تنقطع وحدة الفكرة عندي . هذه الوحدة اللازمة لحياة كل مفكر »^(١) .

وكتب في ٢٧ فبراير سنة ١٨٢٦ في خطاب شائق إلى ديلافليل يشرح شرحاً واضحاً الفكرة التى تولد منها مذهبه قال : « إن فكرتى في اعتبار السياسة طبيعة اجتماعية وذلك القانون الذى اكتشفته عن أحوال العقل الإنسانى الثلاثة ليسا إلا فكرة واحدة نظر إليها من جهتين مختلفتين : جهة الطريقة وجهة العلم . ومتى تقرر ذلك فسأبين أن هذه الفكرة تكفى تمام الكفاية وبطريق مباشر لسد الحاجة العظيمة التى تحسها الجمعية الحاضرة من جهة النظر ومن جهة العمل معاً . وأظهر أن ما من شأنه أن يبعث إلى المستقبل التماسك والمتانة بإقامة نظام ترتاح إليه الأذهان هو أيضاً ينظم الحاضر قدر المستطاع إذ يقوم أمام رجال السياسة كأساس يبنى عليه العمل المعقول »^(٢) .

ومن ذلك الحين أصبحت حياة كومت مكرسة لإنفاذ برنامجه إنفاذاً مرتباً متيناً ، فجعل يؤلف وينشر بانتظام تام فلسفة العلوم والتاريخ والأخلاق والسياسة والديانة الوضعية . وليس معنى ذلك أن فكرة كومت بقيت جامدة فقد تطورت فيما بين سنة ١٨٢٢ وسنة ١٨٥٧ . ولكن تطورها كان بحيث

(١) رسائله إلى فاللاصفحة ١٢٨ .

(٢) السياسة الوضعية ج ٢ ص ٢٠ مقدمة .

يستطيع الملاحظ الدقيق الذي قرأ (فكرته عن المسائل العلمية اللازمة لإعادة نظام الجمعية) أن يرسم خطاها من ذلك الحين . فلم يكن لكومت إلا مبدأ واحد تطور . وتمت فكرته فيما بين ما نشره حين كان في سن العشرين إلى يوم أن ظهر كتابه عن (التوفيق الذاتي) *La synthese subjective*

ولقد طعن على تناسق هذا المبدأ ووحده . وإن كومت نفسه ليميز في حياته بين حالين متعاقبتين . كان هو في أولاهما - على حد قوله من غير تواضع باطل - أرسطو ؛ ثم صار في الثانية القديس بولس . وإنما هيا مؤسس الفلسفة الأسباب لوضع الديانة « فقد أخلصت حياتي لأستخلص من العلم الثابت الأسس اللازمة للفلسفة الصحيحة التي تسمح لي أن أقيم الديانة الحققة على موجبها » .

على أن جماعة من أكبر أصحاب كومت وأكثرهم مناصرة له في مبدئه أمثال لثريه ، قد وقفوا عن اتباعه في حالته الثانية ولم يقنعهم ما عندهم من الإعجاب بالفيلسوف لينضموا إلى القديس .

ولثريه وأصحابه أحرار في الوقوف عن ترسم كومت إلا إلى حد معين ، وهم أحرار أن يقبلوا فلسفته ويرفضوا ديانته . ولو أنهم وقفوا عند ذلك لما كان لكومت إلا أن ينعى سوء منطقته ويبرأ من (أولئك الوضعيين غير الناضجين الذين لا تريدهم دعواهم الذكاء ذكاء ولا فطنة) . ولكنهم على العكس من ذلك هم الذين اتهموا كومت بالخطأ والتناقض قائلين إنه خان مبادئه الأولى وإن الطريقة الذاتية *Méthode subjective* ، التي لجأ إليها في الثانية أفسدت ما أوصلته إليه الطريقة الموضوعية في حاله الأولى من ثمين النتائج ، مدعين أنهم في وقوفهم عند (دروس الفلسفة الوضعية) أكثر إخلاصاً لفكرة كومت الرئيسية من كومت نفسه ، وأنهم فيما يقولون من ذلك إنما يدافعون عن الفلسفة الوضعية الحققة في وجه مؤسسها ومنشئها .

ولقد دفع كومت عن نفسه هذه التهم التي حزت في كبده وبلغت من

نفسه لصدورها من أولئك الذين عدتهم أشد أصحابه إخلاصاً وأكثر أصدقائه وفاء . وإن ما سنجىء به في هذا الكتاب قمين أن يظهر خطأهم ويبين أن طريقي كومت ليستا متنافيتين ، بل تكمل إحداها الأخرى كما تكمل حاله الثانية حاله الأولى .

صحيح أن أفكار كومت وكتاباتة أخذت صبغة صوفية في السنين العشر الأخيرة من حياته ، وأن صلته القصيرة بمدمام دفو ، ثم موت هذه الصديقة « القديسة » هزا مشاعره هزة شديدة ، وأن هذه المشاعر والعواطف تحولت في نفسه إلى أفكار دخلت خلال طريقته ومذهبه في وقت كان يعمل فيه لتأسيس ديانة للإنسانية زعم أنه سيكون لها على النفوس سلطان يعدل ما كان للمسيحية عليها ، وأن احتياج عواطفه واهتمامه بالديانة الجديدة التي يقيمها وشعوره بالرسالة القدسية الملقاة عليه شعوراً متحكماً كان من شأنها أن تؤثر في المبدأ الذي قرره في المدة السالفة ؛ لهذا لم تظهر فلسفة العلوم والتاريخ في (السياسة الوضعية) على الطريقة التي ظهرت بها في (الفلسفة الوضعية) . ولكن ذلك كان مقصوداً . وإن كومت ليفسر اختلاف العبارة وطريقة الشرح والعرض في هذين الكتابين باختلاف الغاية التي رعى إليها كل منهما . أما المبدأ الفلسفي فقد بقى فيهما واحداً لم يتغير ، وكل ما يمكن موافقة لتربيه عليه أن عرض المبدأ من الجهة الدينية في (السياسة الوضعية) أفسد ظاهره فلا يستطيع من قصر قراءته على هذا الكتاب أن يصل إلى فكرة المبدأ الدقيقة التي وضعت في (دروس الفلسفة الوضعية) . ولهذا السبب عينه أشار كومت على كل من قرأ كتاب السياسة أن يرجع إلى كتابه « الرئيسي الأكبر » .

على أن المدقق الذي يطلع على (الدروس) يجد فيها إشارات وعلامات تنبئ عن كتابه السياسة وتبشر به . ولو أن كومت اكتفى بالإشارة إلى ما جاء من ذلك في « الدروس » لكفى ذلك رداً على أصحابه الخارجين عليه .

لكنه عمل خيراً من هذا . فلقد طبع في آخر الجزء الرابع من كتاب السياسة الوضعية ست رسائل مما كتب في أيام صباه ما بين ١٨١٨ و ١٨٢٦ حوت ، خلا النقط الجوهرية لفلسفته ، فكرته في أن الفلسفة ليست إلا مقدمة بسيطة وأن العمل الأهم والغاية العليا إنما هما الديانة الوضعية التي أعدت الفلسفة لتكون أساساً لها ترتفع فوقه . بل لقد كانت هذه روح كل تلك الرسائل . ومن ثم صحت حجة كومت وقوى مركزه فيما يتعلق بوحدة مبدئه وكسب الخصومة من منازعه لثريه .

بين كومت غير مرة في رسائله لجون ستوارت مل - وكانت فيما بين سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٦ أى في الفترة التي تشمل ختام حاله الأول وبدء حاله الثانية - محل تماسك قسمى أعماله وموضع تباينهما . وقد يكون مفيداً أن ننقل هنا نص ألفاظه ، قال : « يجب أن يختلف القسم الثاني من حياتي الفلسفية عن القسم الأول منها اختلافاً عظيماً وبالأخص في العواطف . إذ يجب أن تحتل من نفسى محلاً حقيقياً ، وإن لم يكن ظاهراً يضارع ما يحتله العقل منها ، فإن التنظيم العظيم الذي اختص به عصرنا يجب أن يشمل العواطف كما يشمل الأفكار ، بل إن هذه الأخيرة هي التي يجب تنظيمها أولاً ، وإلا فاتنا تكوينها تكويناً صحيحاً فترتكس في نوع من التصوف فيه ما فيه من إيهام لا حد له ، ولهذا كانت وجهة كتابي الرئيسي مخاطبة العقل دون سواه ، فبينته على أساس من البحث وما يلزمه من المعارضة والمناقشة ، وغايته من ذلك اكتشاف المبادئ العامة الصحيحة وتكوينها بالتدرج من أبسط المسائل العلمية إلى أرقى المضاربات الاجتماعية. »^(١) فلما تم ذلك لكومت انتقل لتنظيم العواطف على اعتبار أنها (النتيجة اللازمة لتنظيم الأفكار والأساس الذي لا أساس غيره لقيام الأنظمة) .

(١) رسائل كومت إلى جون ستوارت مل ص ٤٥٦-٧ خطاب كومت المؤرخ ١٤ يوليو

وإذن فهذا القسم الأخير عمل قائم بذاته ، ولقد ظن كومت أن شخصاً سواه كان يستطيع أن يقوم به فتنتى مهمته هو عند تأسيس الفلسفة التي تضع حداً (للفوضى العقلية) ثم يكون بناء الأخلاق والديانة على أساس من هذه الفلسفة ووضع حد للفوضى الخلقية والسياسية من عمل صاحب يخلفه . على أن إيمان العمل والحظ الحسن قد سمحا له هو بإتمام هذا العمل . وقد رأى منذ سنة ١٨٤٥ (تحت تأثير مدام دفو الصالح) مجموع حاله والفرق بينهما ، وقدر في الثانية وجوب جعل الفلسفة ديانة كما جعل من العلم فلسفة في الحال الأولى .

وغرضنا من هذا الكتاب درس فلسفة كومت من غير تعرض إلى التحول الذي طرأ على هذه الفلسفة فجعلها ديانة ، وليس اختيارنا هذا الغرض اختياراً تحكيمياً . فلدينا - تبريراً له - ما رأينا من تقرير كومت نفسه أن فلسفته وديانته قد يقوم بوضع كل منهما شخص مستقل عن الآخر .

قد يتساءل بعضهم عن الفرق بين المركز الذي اخترناه لأنفسنا ومركز لثريه (والوضعيين غير الناضجين) . وجوابنا أن الفرق بيننا وبينهم هو الفرق بين نظر المؤرخ والمقرر . فإن لثريه وأصحابه قد نظروا من هذه الجهة الأخيرة ورفضوا لذلك فكرة (تنظيم العواطف) والطريقة الذاتية وديانة الإنسانية ، وأخذوا كوضعيين ، القسم الأول من المبدأ ولم يأخذوا القسم الثاني . أما نحن فقد وضعنا أنفسنا موضع المؤرخ ، وللمؤرخ الحق في تحديد موضوعه من غير أن يترك دقيقة ولا جليلة من المبدأ الذي يعرضه . ونحن أبعد من أن ندعى مع لثريه أن الشطر الثاني من مذهب كومت يضعف الشطر الأول ويناقضه ، بل لقد قررنا أن مجموع القسمين يكون كلاً واحداً وضع كومت فكرته في كتاباته الأولى ، وأنه كان على حق حين وضع في صدر كتابه (السياسة الوضعية) تلك الكلمة الجميلة التي قالها الشاعر الفيلسوف : إنما الحياة العظيمة فكرة يصورها الشباب وتنفذها الرجولة .

ولم لا ندرس إلا الشطر الأول من حاله ؟ لم لا نحترم مجموع ذلك الكل ونحن نرى أن لثريه قد أخطأ في إنكار تناسقه ؟ أجل إنا لنحترمه فلا نجتزئ من المبدأ استبداداً شيئاً مما جعله كومت قسماً منه ، ولئن جعلنا الفلسفة الغرض الفرد من ذلك الكتاب فإننا سنجعل حاضراً أمام الذهن دائماً ذلك المجموع الأعم الذى وضعه كومت فيه ، فذلك شرط لازم لا يكون بدون هذا البحث دقيقاً وافيةً . ولكن متى التزمنا بهذا الشرط فنحن فى دائرة حقنا إذا نحن وجهنا إلى الفلسفة وحدها كل مجهوداتنا .

لتصوير تاريخ مبدأ من المبادئ طريقتان : فإما أن يقف المؤرخ نفسه فى الموقف الفكرى للفيلسوف الذى يدرسه مستعيداً أفكار ذلك الفيلسوف الرئيسية على الوجه الذى كان قد رآها به ثم يقدر على طريقتيه أيضاً أهمية المسائل المختلفة من غير أن يخرج عليه فى التمييز ما بين المهم والثانى منها ، ويكون التاريخ فى هذه الحالة أشبه شئ بترجمة عقلية للمؤلف . وإما أن يعمل المؤرخ لاستجلاء دخيلة المذهب قصد الوقوف على ما بنى من مبادئ وأفكار ، ثم يضع نفسه بعيداً عنه وفوقه ويجهده ليمركزه فى محله من التطور الفلسفى العام ، وبهذه الطريقة يتيسر فهم المذهب فى مجموعته فهماً دقيقاً حيث يراه الإنسان ، ويرى مبلغ اتصاله بما سبقه وما عاصره ، وما جاء بعده من المبادئ . ثم إن الإنسان ليستطيع فى هذه الحالة الأخيرة أن يفرق ما بين الأفكار الفلسفية الباقية والأفكار الثانوية الأهمية القليلة البقاء مهما يكن من رأى صاحبها فيها وإنا لناخذ عن كومت فى هذا المقام تفرقة كان يكثر من تقريرها ، فكان يعطى أولى هاتين الطريقتين الأفضلية لمن أراد البحث والتنقيب ويعطى هذه الأفضلية ثانيتهما فيما يتعلق بالتاريخ .

وتطبيق الطريقة الأولى فى النظر إلى مذهبه يسوق المؤرخ ليكون معه فى اعتبار الفلسفة الوضعية تمهيداً وتحضيراً لديانة الإنسانية التى كانت الغرض والغاية من مجهودات تلك الفلسفة . ومهما وجب على المؤرخ فى

مثل هذه الحالة أن يوسع بهذه المقدمة اللازمة المؤلف الأساسى الذى وضع فيه كومت الأساس الفكرى لمبادئه السياسية والدينية فهو مكلف أن يجعلها تابعة لهذه المبادئ وأن يضع فى المكان الأول فكرة (إعادة نظام الجمعية) وآى ديانة الإنسانية وبناء سلطان روحى ، وسائر ذلك القسم من عمل كومت الذى أراد أن يقوم مقام (برنامج الكاثوليكية فى العصور الوسطى) وكله الثقة أنه سيؤدى غرضها خيراً مما قامت هى بأدائه .

ولكن عبقرية كومت لم تظهر على أكملها فى هذا القسم من عمله . كلا ! ولا كان هذا القسم أخصب مواضع فكرته . فإن مسألة إعادة نظام الجمعية لم تكن من وضعه هو بل كانت منتشرة فى البيئة التى ظهر فيها أول شبابه إذ كانت كل آمال الجيل الذى نشأ معه متجهة إلى إعادة النظام ووضع شروط التقدم وتحديد الصلات بين مقتضيات الخلق وضرورات السياسة وإقامة ديانة تملأ ذلك الفراغ الذى خيل للناس أن الكتلكة تركته وراءها ، وكل ما جاء فى (السياسة الوضعية) لا يزيد على مشروعات المدرسة السان سيمونية التى ظهرت فى سنة ١٨٣٠ وإن اختلف الأساس الذى قامت عليه كل من الفكرتين . فكل ما عملته هذه السياسة أنها تأخرت ثلاثين سنة عن المشروعات المماثلة لها لا لشيء إلا أن كومت أراد إقامة نظامه على أساس من الفلسفة ومن الأخلاق فصرف فى هذا المجهود النظرى زهرة شبابه وعنفوانه ، ولكن الفكرة ذاتها ترجع فى نفسه إلى الثلث الأول من ذلك القرن كما تدل عليه النشرات التى أعاد كومت طبعها . فلما ظهرت فيما بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٥٧ لم تكن من الجيل الجديد الذى نشأ فى ظروف سياسية واجتماعية مخالفة لظروف جيل كومت ، فلم تجد إلا نفوساً غير مكرثة لها لاشتغالها بمسائل أخرى ظهرت فاستلقت الأذهان واستشعر الناس الحاجة إلى حلها على عجل . وبذلك لم يبق لفلسفة التاريخ أن تستفز من النفوس ما كانت تستفزه من قبل ، وضعف ما كان فى النفوس من

شوق لظهور ديانة جديدة وبرهنت الكتلكة أن قوة الحياة فيها لا تزال موفورة لم تصب بسوء .

لهذا فإن عبقرية كومت والاحتياطات التي ظن أنه اتخذها لإقامة نظامه الاجتماعي على أساس معقول ، كل ذلك لم يمنع فكرته أن يصيبها ما أصاب غيرها من الأفكار المشابهة لها مع بعض اختلاف في الزمن الذي لزم لذلك .
حقاً أن (السياسة الوضعية) وغيرها من الكتب التي كتبها كومت في حاله الثانية تكثر فيها الآراء الثاقبة الدقيقة . ومن المفيد أن يبحث الإنسان عما يصل إليه تفكير العقل الكبير في أي موضوع من الموضوعات ، ولكن هذا الجزء من عمله وإن حسبه هو صاحب المركز الأول أبعد من أن يحتفظ بهذا المركز في نظر المؤرخ .

وسبب ذلك أن كومت لا يمثل فيه إلا جيله أما في فلسفته فهو ممثل عصره والقرن بأجمعه . ولسنا بحاجة إلى إقامة الدليل على ذلك ؛ فإن تاريخ الحياة الفكرية لذلك القرن تشهد به كل خطوة من خطاها ؛ إذ كان هذا المذهب من بين كل المذاهب التي ظهرت في فرنسا في القرن التاسع عشر الوحيد الذي تخطى حدود هذا الوطن ورسم بطابعه المفكرين الأجانب .
فقد لقيت فلسفة كومت أول ظهورها في إنجلترا وهولندا عطفاً لم تلقه في فرنسا نفسها ، واستمد منها ستوارت مل وهيربرت سبنسر وجورج لويس وجورج البت وعدد غيرهم من فلاسفة الإنجليز وكتابهم ، ثم هي لا تزال إلى اليوم تبحر من بين رجال إنجلترا النوابغ من يدافع عنها . وإذا لم يكن من فلاسفة الألمان من اتصل بكومت صلة جان ستوارت مل به ، فإن الروح الوضعية تمتد في الكليات الألمانية وتنتشر من نحو ثلاثين سنة . ويكفي مقنعاً بذلك ملاحظة ما هناك من اطراح الأفكار المتافيزيقية (ما بعد الطبيعية) والمذهب الذي يقام على أساس العلوم الخلقية والاجتماعية ، أما في الممالك اللاتينية في العالمين فأثر كومت ظاهر على أشده ، سواء في ذلك

إسبانيا والبرتغال وأمريكا الجنوبية . ولم تخل أمريكا الشمالية من الجمعيات الوضعية . بل لقد لقي كومت فيها أيام حياته أصحاباً أكثر ما يكونون لمذهبه إخلاصاً .

أما السبب الأهم في إذاعة الفلسفة الوضعية في فرنسا فكانت كتابات دينك المؤلفين المحبوبين إلى الرأي العام تين وريتان . فلقد عملا من غير أن يكونا وضعيين لنشر مذهب كومت أكثر مما عمل لترية وكل الوضعيين معاً . حقاً لقد أفاد تين كثيراً من سينوزا ومن هيغل . أجل أفاد من كندياك أكثر مما أفاد منهما . وهو يتصل من المعاصرين بستوارت مل وسبنسر . ولكنه إنما كان يصدر عن كومت متخذاً إياهم بعد ذلك سبيله ووسيلته . ففكرته في تاريخ الأدب وفي النقد وفي فلسفة الفنون والمجهودات التي صرفها لينقل إلى العلوم الخلقية طريقة العلوم الطبيعية كل ذلك يرجع إلى أوجست كومت بنوع خاص . وكتابه في تاريخ أدب الإنجليز هو تطبيق للنظرية الوضعية التي تجعل تطور الفنون والآداب خاضعاً لأحكام معينة وقوانين محتومة تجعلها متضامنة مع تطور الأخلاق والأنظمة والعقائد . أما نظرية الزمن والوسط ، وهي إحدى نظريات تين الرئيسية ، فلم تكن مجهولة في القرن الثامن عشر ، ولكن فضل تعميمها يرجع إلى كومت في مقاربتة ما بين لاماركة ومونتسكيو . وكومت هو الذي أفاد تين التعريف العام لفكرة الوسط تعريفاً جامعاً بين أن يكون بيولوجياً واجتماعياً .

وأما ما قاله رينان عن كومت فكان غاية في القسوة ويمارجه شيء من التحقير والازدراء . وعلى الرغم من ذلك فقد اعترف أن كومت سيكون بلا شك من أعلام ذلك العصر كما أنه لم يسلم من التأثير به أعظم الأثر . ولئن كان واجباً ألا ننسى المصادر الأخرى الفرنسية والأجنبية التي أوردتها ذلك العقل الكبير ، فإن اعتباره التاريخ (علم الإنسانية الأقدس) وانتظاره منه أن يحل الإيمان بفكرة التقدم الوضعية محل آي الكثرة القديمة عن

القدرة العليا ، وإدراكه أن الحقيقة والخير ليسا حقائق خالدة جامعة بل هما يتحققان رويداً رويداً بمجهودات الأجيال المتعاقبة ، كل ذلك يرجع الفضل فيه إلى كومت ببلغ ما يرجع إلى هيجل .
ونحسب هذين المثليين يكفيان لإظهار ما وصلت إليه الروح الوضعية من سعة الانتشار .

وقد بلغ من اختلاط هذه الروح بالفكرة العامة في عصرنا الحاضر حتى أصبح الإنسان لا يكاد يلاحظها مثلما أنه لا يهتم للهواء الذي يستنشقه . فتأثر بها التاريخ والقصص والشعر ثم عادت هذه الفروع كلها فزادت في تلك الروح انتشاراً . وكذلك عن كومت صدر علم الاجتماع الحاضر ؛ وعنه إلى حد ما صدر علم النفس بطريقته العلمية . ولهذا كله فلا يكون مجازفاً من يعتبر الفلسفة الوضعية مظهر الميول والأفكار المميزة لعصرنا الحاضر .

وإذن فوقونا من عمل كومت عند الفلسفة التي تكون أكثر أقسامه عبقرية وحياة وخصباً ليس هو إلا الأخذ بالحقيقة التي يرى بها التاريخ . ولا يهمنا إن لم يعتبر كومت هذا القسم إلا مقدمة بسيطة . فكم كان المجهود النظرى يقوم به أحد المفكرين لينشئ فوقه عملية أكثر فائدة وأخلد أثراً من تلك النتائج نفسها .

المسألة الفلسفية

يرى كومت أن القصد من الفلسفة أن تقوم أساساً للخلق وللسياسة وللدين . فهي ليست غاية لذاتها ولكنها وسيلة لغاية لا يمكن الوصول إليها بدونها . ولو اعتقد كومت يوماً أن في الإمكان إعادة نظام الجمعية من غير البدء بنظام الأخلاق أو إقامة نظام الأخلاق من غير أن يسبقه تنظيم العقائد ، إذن لما أَلَفَ - على الأغلب - ستة أجزاء في دروس الفلسفة الوضعية التي شغلته ما بين سنة ١٨٣٠ و سنة ١٨٤٢ ، بل لتخطاها إلى ما كان أسمى منها فائدة وأكثر جدوى .

ولكنه اقتنع من أول أمره أن أقصر الطرق أسوأها ورأى أن كل مجهود يصرف لإقامة النظام الديني أو السياسي أو الخلقى يذهب عبثاً إذا لم يسبقه إعادة النظام العقلي ؛ لهذا جعل أول همه إقامة فلسفة جديدة لا غنى عنها للوصول إلى الغاية الاجتماعية التي كان يرمى إليها . وبذلك أصبحت هذه الفلسفة غرضاً في ذاتها ولو مؤقتاً .

إذن فسينظم كومت العقائد . ومعنى ذلك أنه سيحل إيماناً مبنياً على الحجة والدليل محل الإيمان الموحى به والذي خبا ضوءه . ولن يكون ذلك الإيمان المتعقل مشابهاً في شيء للديانة الطبيعية التي قامت في القرن الثامن عشر ، فإن تلك الديانة لم تكن إلا نوعاً مختلاً ضعيفاً من أنواع الإيمان بما فوق الطبيعة تظهر الفكرة الدينية من خلال منطق الميتافيزيق

عن الألوهية . أما الإيمان المتعقل فيستمد أصوله ومسوغات وجوده من العلم الوضعي ، (الواقعي) . ويومئذ لا يكون التنافر الذي يرى بين كلمتي (الإيمان) و (الدليل) إلا تنافراً ظاهرياً وإن كان ما سيوضع من القواعد يراد به أن يكون موضع (إيمان) ، نظراً لما يجب للأغلبية العظمى من الناس من الأخذ بالنتائج التي قررتها الفلسفة الوضعية . وسيقون دائماً قلائل أولئك الرجال الذين يجدون من الوقت ويصلون من كمال العلم إلى ما يمكنهم من فهم هذه النتائج واستقصاء أدلتها . أما من سوى هؤلاء فلن يكون منهم لها سوى الخضوع والاحترام . ولكن الفارق بين هذا الإيمان المتعقل وبين ما عرفته الإنسانية إلى يومئذ من آي الدين أن الأول لا يحوي شيئاً لم يثبت بعد تمحيصه بالطريقة العلمية ولا شيء فيه يخرج عن دائرة المعلومات النسبية ، وأن كل ما فيه يمكن في لحظة إثباته أمام كل ذى بصيرة يستطيع تتبع ما يلى به من الحجة والدليل .

وهذا النوع من الإيمان حاصل بالفعل فيما يتعلق بعدة حقائق علمية .

فجميع المتمدنين يؤمنون اليوم بنظرية (النظام الشمسي *Système Solaire*) التي يرجع الفضل في اكتشافها إلى كوبرنيك وكبلر ونيوتن ، وقل منهم من هو بحيث يفهم الايضاحات التي بنيت النظرية عليها . ولكنهم يعلمون أن ما هو موضع إيمانهم هذا هو موضع علم وبحث عند الآخرين ، وأنه يكون كذلك بالنسبة لهم لو أنهم وصلوا من العلم لما يؤهلهم له . إذن فليس معنى الإيمان هنا التنازل اختياراً عن تعقل طريقة تفوق مدى العقل ، بل التسليم الذي لا يضيع على صاحبه حق التعقل . وأساس هذا التسليم أن ليس في وسع إنسان في كل لحظة أن يستعمل حق النقد . ومن رأى كومت وجوب قصر هذا الحق في العمل عند أضيق حدوده . وإن كان الأصل وجوده لكل رجل ذى بصيرة ما بقي . وعلي ذلك يكون معنى الإيمان المتعقل هو هذه الفكرة : (لو أن الناس جميعاً كانوا بحيث يستطيعون

استقصاء آياته لوصولوا جميعاً وبلا استثناء لفهم مبادئه ونظرياته ولسلموا بها كلهم .

فيجب إذن ألا تكون كلمات (العقيدة) و (الإيمان) مثارا هنا لشبهة . فإن ما اشتغل به كومت من (تنظيم العقائد) لم يشمل منها إلا ما كان ممكن التوضيح والاستظهار . وهو هنا متفق مع فكرة سان سيمون الذي كان يعتبر الديانة كأساس من أسس النظام السياسي ، ثم إن كومت - في أول حاله على الأقل - لم يدخل في الإيمان شيئاً من المسائل الغيبية أو العواطفية أو غير العقلية التي تنطوي عليها هذه الكلمة عادة وتجعلها لذلك معارضة في أغلب الأحيان للعقل ، بل قصد بالإيمان كل ما يعتقد الإنسان خاصاً بأى مسألة من المسائل يمكن أن يصل إليها علمه . وإنما حدا به إلى ذلك ما ظهر من عدم اكتفاء العقل الإنساني بتلك التفسير المثلية أو الميتافيزيقية التي كان يعلمها الفلاسفة والقساوسة الناس عن العالم وعن الإنسان والتي كانت موضوع العقائد إلى حيثئذ . فاتخذت الفلسفة الوضعية طريقاً غير ذلك الطريق وجعلت تحل العرفان بقوانين الحوادث محل هذه التفسير . ومن ثم أصبحت المسألة عند كومت .. الوصول من طريق العقل لإقامة مجموعة حقائق خاصة بالإنسان والجمعية والعالم يسلم بها الناس جميعاً .

وقد وفر في نفس كومت على أثر ذلك فكرتان : أولاهما أن الأفكار والعقائد والتصورات الخاصة بهذه الأمور كانت في ذلك اليوم فوضى ، والثانية أن حالتها الطبيعية المعقولة أن تكون منظمة .

أما النقطة الأولى فغنية عن كل دليل . ويكفي أن يلقي الإنسان نظرة على الجمعية الخاصة ليعلم أن الاضطرابات التي تهز جوفها وتهددها بالخراب إذا هي لم تهتد إلى أساس ثابت يقوم بناؤها عليه ليس مرجعها

أسباباً سياسية فحسب ، بل هو نتيجة اضطراب خلقي يرجع هو الآخر إلى اضطراب فكري منشؤه عدم وجود قواعد مشتركة بين كل العقول وعدم قيام مبادئ وعقائد يسلم بها الناس جميعاً . وليس يكفى لوجود جمعية إنسانية وبقائها وجود شيء من الشبه بين العواطف ، كلا ولا قيام المصلحة المشتركة بين أفرادها بل يجب مع هذا وقبل كل شيء وجود اتفاق فكري تحققه مجموعة عقائد مشتركة .

فإذا رأيت جمعية من الجمعيات يعمل فيها فساد مزمن لا تظن أن طرق العلاج السياسية تنتج في شفاائه فاعلم أن السبب الأصيل لذلك الفساد إنما هو اختلال النظام العقلي وأن المفاصل الأخرى ليست إلا مظاهر لهذا الاختلال . وتلك في رأى كومت هي حال جمعيتنا الحاضرة ؛ فلم تبق تحكمها سلطة عقلية ولا روحية وبلغت من ذلك حتى فقدت مجرد الشعور بانحلال تلك السلطة . فلم يبق بين العقول نظام مشترك تقره ولم يبق النقد السلبي الهادئ مبدأ إلا أتى عليه وأقام الفرد نفسه الحكم الأوحد في كل مسائل الفلسفة والخلق والسياسة والدين يأخذ منها ما يشاء ، ولو لم يكن عنده من العلم ما يؤهله لهذا الاختيار ويحسب أن ما أخذ به ليس أقل مما أخذ به سواه . وأنه لا يصدر إلا عن نفسه . وهذا التشتت بين العقول (أو ما يقول عنه كومت أخيراً هذه الثورة فيها) هو ما نسميه حالة الفوضى .

ولكن مثل هذه الحال هي الحال العادية الصرفة للجمعيات الإنسانية . وإن الحال النظامية لا تظهر إلا نادراً وبصفة استثنائية . وهذا زعم فاسد الأساس ، ولو أنه صح يوماً لما بقيت الجمعيات ثم لما تقدمت . وإنما الصحيح أن أزمة الفوضى العقلية هي أزمة استثنائية ، وأن الناس في كل جمعية عادية يربطهم معاً خضوع عام لمجموع معين من المبادئ والعقائد . والتاريخ شاهد يؤيد هذا الرأي . فإن جمود مدنات الشرق الأقصى مرجعه الأول ما يمتازون هم به عننا من الثبات العقلي . وقد اطمانت الجمعيات

القديمة (اليونانية والرومانية) إلى فكرة معينة عن الإنسان وعن المدنية وعن العالم لم يطرأ عليها طول مدة بقاء هذه الجمعيات إلا قليل من التغيير . ثم كان للمسيحية في أوروبا سلطة عجيبة في مدى القرون المتوسطة فأقام النظام الكاثوليكي (الذى يعتبر منتهى ما تصل إليه الحكمة السياسية) بناء من العقائد اطمأنت له كل النفوس وأسلمت قيادها له وانحلال هذا البناء أقوى من معظم الشرور التى نتخبط فى حمائها . من ذلك يتبين أن الفوضى العقلية حال غير عادية ومرض سماه كومت (لمرض الغربى) ولو طال أمد هذا المرض لأصبح قاتلاً فإما أن تستسلم الجمعية له قهلك ، وإما أن تعاود العقول توازنها بالخضوع لمبادئ مشتركة والتسليم بها .

من ذلك يظهر أن مسألة إعادة نظام العقائد تزودج فيصبح ثمة من جهة مسألة فلسفية صرفة ترمى إلى إقامة مجموعة مبادئ عقائد صالحة ليسلم بها الناس جميعاً ، ومن جهة أخرى مسألة اجتماعية تبحث فى الوسيلة لجمع العقول والأذهان إلى هذا الإيمان الجديد ، على أن هذه الفكرة ليست إلا ظاهرية . فإن حل المسألة الأولى يجر حتماً إلى حل المسألة الثانية . ذلك لأن صفة النظام عند المجموع أساسها الأول ما فى نفس كل فرد من الاضطراب ، وانقسام العقول فيما بينها أصله انقسام كل عقل على نفسه . فلو أن عقلاً واحداً أمكنه أن يقيم التوازن فى نفسه لانتقل هذا التوازن بفضل المنطق وحده إلى ما حوله ومن جاوره . وإذن متى أنشئت الفلسفة أصبح أمر تحقيق الباقي موكولاً ليد الزمن . وحسبنا بحث الأفكار والعقائد القائمة فى إحدى النفوس والنظر فيما يلزم لإحلال التوازن محل الفوضى فيها بمعنى أن يحل فيها « توازناً منطقياً كاملاً » .

لما أراد ديكارت أن يبلى معلوماته بمبدأ الشك لم يحتج إلى أكثر من تعرف المصادر التى جاءت هذه المعلومات عنها . وكذلك فعل كومت . فإنه لما أراد تحقيق التوافق المنطقى لآرائه اكتفى بالنظر فى الطرائق التى أوصلتها

إياه ، حتى إذا اكتشف أن أياً من بينها لا تتفق مع سواها كان قد وجد سبب الاضطراب العقلي ومنشأ المفاصد التي تثقل كاهل الجمعية الحاضرة ، وكان كذلك قد وجد الدواء . والدواء هو السعى لاستبعاد هذا التناقض ؛ فإن الوحدة والتوافق هما أول ما يتطلبه الفكر الإنساني بطبيعته ، والفهم متناسق بفطرته فلا يكفي بآراء محشودة في الذهن ولا تتفق مع المنطق ، ومهما يكن التناقض مجهولاً من صاحبه فإن ذلك لا يمنعه من أن يحس به ، وكل فكرة عندنا تستدعي وجود مجموع أفكار مرتبطة بها وصلت إلينا من نفس الطريق الذي وصلت منه تلك الفكرة ، وهذا المجموع جزء من كل أعظم منه يتم في أنفسنا ونجمعه فكرة عامة عن العالم .

وقد وجد كومت في نفسه وفي نفوس معاصريه طريقتين عامتين من طرائق التفكير لا يتفق وجودهما معاً من غير تعارض ولا تناقض . ولم تستطع إحداهما إلى يومنا هذا التغلب على الأخرى تغلباً حاسماً . فهو يفكر عند النظر في عدة مجموعات من الحوادث تفكير عالم نشأ في مدرسة هيز وجاليليه وديكارت وتابعيهم فلا يفكر في تفسير هذه الحوادث بأسبابها ، ويقنع أن أوصلته الملاحظة أو أوصله الاستقراء لمعرفة قوانينها لما تسمح له به معرفة تلك القوانين من المداخلة أحياناً في شأن الحوادث ليحل محل النظام الطبيعي نظاماً صناعياً أكثر اتفاقاً مع حاجاته ، وهذا هو ما صير المظاهر الميكانيكية والفلكية والطبيعية والكياوية ، بل البيولوجية في نظره ، موضوعات للعلم النسبي والوضعي (الواقعي) .

ولكن متى كانت المسائل المراد النظر فيها راجعة أصولها إلى دخيلة ضمير الإنسان أو متعلقة بالحياة التاريخية والاجتماعية ، فهناك تغلب على النفس وجهته مناقضة لتلك الوجهة الأولى . فلا يقتصر الذهن عندئذ على البحث وراء قوانين الظواهر ، بل يزعم لنفسه القدرة على تفسيرها ويندفع يريد الوصول لماهيتها وسببها . فهو يبحث في أمر الروح الإنسانية وفي

علاقتها بحقائق العالم الأخرى ، وفي الغاية التي يجب على الجمعية أن ترمي إليها وفي أحسن الحكومات الممكنة وفي العقد الاجتماعي وفي غير ذلك من المسائل التي يرجع في كلها إلى طريق التفكير (الميتافيزيقي) . وهذا الطريق لا يتفق مع الأول بحال من الأحوال . ومع ذلك نراهما قائمين اليوم معاً في كل النفوس .

وإن سير الجماعات ليظهر لنا كيف حدث ذلك . ولكن أياً كانت أسبابه التاريخية فإن حقيقته ثابتة للعيان . فلا يستطيع الذهن الإنساني اليوم أن يتقبل كلا ، ولا أن يرفض بتاتاُ أياً من هاتين الطريقتين من طرائق التفكير . فهو يشعر تمام الشعور أن ما قرره العلوم الوضعية لا يمكن رفضه أو التخلص منه . وأن لا سبيل للرجوع إلى تفاسير ميتافيزيقية أو دينية للظواهر الفلكية أو الطبيعية . ولكن يرى أيضاً أن الصور الميتافيزيقية والدينية لازمة عنده ولا غناء له عنها . وذلك طبيعي ما دام العقل الإنساني يريد لسد حاجته إلى الوحدة والتناسق اللذين هما مطلبه الأعلى فكرة عامة تحيط بكل أنواع الظواهر . وهذه الفكرة هي ما سماه كومت جماع التجارب ، أو هي في كلمة واحدة (الفلسفة) .

ولم تثبت طريقة التفكير الوضعية إلى اليوم قدرتها على سد هذه الحاجة ، إذ أنها لم تنتج إلا بعض علوم معينة ، ولما كان العلم الوضعي خاصاً وجزئياً فقد قصر بحثه على مجموعة محدودة من الظواهر وقف عليها كل أعماله التحليلية والتنسيقية بدقة محمودة كانت أساس قوته ، ولم يقدم يوماً ما على تنسيق كل الحقائق التي وصل إليها علمنا . بل اختص الديانات والميتافيزيقيات بهذا العمل الذي لا يزال إلى يومنا هذا سبب وجودها الأهم ، ذلك بأنه عمل يجب القيام به لما يطمح إليه العقل الإنساني بالضرورة وبطبعه من الوحدة وما يرجوه من تحصيل فكرة عن العالم . فخير له إذن أن يبقى متعلقاً بهذه الحلول التي تقدمها له الديانات والميتافيزيقيات مهما تكن حلولاً

خيالية من أن يترك المسائل الفلسفية معلقة أمامه ولا جواب عليها . ومما تقدم يظهر أن الروح الوضعية في زمننا الحاضر (حقيقة) ولكنها (خاصة) والروح الدينية الميتافيزيقية (عامة) ولكنها (خيالية) . وليس في إمكاننا أن ننضحى (حقيقة) العلم ولا (عمومية) الفلسفة . فكيف السبيل إلى الخروج من هذا المأزق .

لدينا لذلك ثلاثة حلول لا رابع لها :

١ - فإما أن نصل إلى توفيق يمكن معه وجود طريقتي التفكير من غير تضارب .

٢ - وإما أن نقيم الوحدة بتعميم الطريقة الدينية الميتافيزيقية .

٣ - وإما أن نقيم الوحدة بتعميم الطريقة الوضعية .

* * *

يظهر الحل الأول لأول وهلة مقبولاً أكثر من الآخرين . إذ لم لا يتفق بحث الأنواع المختلفة من المظاهر الطبيعية على طريقة وضعية مع فكرة ميتافيزيقية أو دينية عن الوجود . وأى مانع يمنع تصور المظاهر بسنن لا تبادل لها وأن نبحت في الوقت نفسه من طريق آخر السبب الذي يجعلنا نفهم العالم والطبيعة على عمومها . ومتى كان ذلك وتحرر العلم الوضعي من حكم الدين والميتافيزيقية ، ضَمِنَ ذلك العلم لهما مثل ما وصل إليه من الاستقلال وتحددت بذلك على طريقة تزداد كل يوم دقة ، النطاق الصحيح للعلم الوضعي من جهة ونطاق التطورات التي تتعدى التجارب من الجهة الأخرى .

وإن كومت ليخبرنا أن هذا التوفيق ظهر معقولا زمناً طويلاً ، وأن الأفكار الدينية والميتافيزيقية لا تزال إلى يومنا هذا هي الصور الجامعة التي قامت في النفس الإنسانية عن الوجود . ولقد أدت هذه الأفكار بذلك وظيفة ضرورية لولاها لما وجد العلم الوضعي ولما تقدم . ولكن لما كان هذا العلم

هو وارثها فهو كذلك عدوها ، وتقدمه يجرح حتماً تدركها . وما في التاريخ من تراجع آى الدين والميتافيزيقية من جهة والمعلومات الوضعية من الجهة الأخرى يدل على أن التوفيق بينهما لا يمكن أن يدوم .

ولا يكون انقضاء التناقض بين طريقتى التفكير نتيجة معركة منطقية فاصلة تنهزم فيها الديانات والفلسفات ؛ فليس على هذا الشكل تنتهى الآيات والفكر ولكنها تختفى بإهمالها ، كما يقول كومت ، اختفاء الطرق غير المستعملة . وهل هى كانت إلا كطرائق للذهن الإنسانى الذى أراد أن يحيط بمجموع الأشياء بنظرة من قبل أن يتم درسها . ولم يكن للعقل أن يتقدم للإنسان بهذه المعلومات الحقة إلا متأخراً وبرغم الجهود الطويلة التى قام بها العلم ، ولقد كانت المعلومات التى تقدم بها متواضعة كل التواضع ونسبية كلها . لهذا لجأ الإنسان إلى الخيال طالباً هذه المعلومات دفعة واحدة ومطلقة كلها . ولكنه ترك هذه التفسيرات الدينية والمنطقية رويداً رويداً على نسبة تقدمه فى بحث المظاهر بحثاً وضعياً وعوداً نفسه أن يرددها إلى مناطق تزداد بالزمن بعداً من غير أن يهمل قطعاً التنقيب عن أسباب الأشياء . ولكنه أصبح لا يهتم بتقدير الأسباب للظواهر التى وصل فيها إلى فكرة وضعية بحثة وصار يكتب بما يعلم من خضوع هذه الظواهر لقوانين معينة . ومتى اعتادت الأذهان تصور كل الظواهر من كل الأنواع على هذا النحو وأصبحت فكرة قوانين هذه الظواهر أياً تكون متعارفة كذلك لا يبقى لطريقة التفكير الميتافيزيقية وجود ، وبالاختصار فمتى أصبح العلم كله وضعياً أصبحت الفلسفة وضعية كذلك .

فانا لانملك النظر للأشياء إلا من جهة واحدة وكل ما كان من معلوماتنا « حقيقياً » ينصب على الظواهر وقوانينها . فإذا أصبح نظرنا لكل أنواع الظواهر مأخوذة واحدة بعد الأخرى مكيفاً على الطريقة الوضعية لم يبق لنا ، إذا أخذناها معاً ونظرنا إلى مجموعها ، أن نفكر فيها بطريقة مختلفة

عن الطريقة الوضعية بل معارضة لها .

والواقع أن وجود هاتين الطريقتين من طرق التفكير معاً سبق ما دامت الروح الوضعية لم تصل إلى تمام انتشارها وما بقى جزء قل أو أكثر من الظواهر الطبيعية يفسر بماهيته وسببه وغايته . ولكن هذه الحال لن تدوم إلى الأبد . بل كلما تقدمت الروح الوضعية اضمحل مركز الصورة الدينية الميتافيزيقية من العالم وتلاشى . فعلياً إذن أن نختار بين الطريقتين إذ لا سبيل إلى وحدة التفكير ولا إلى التماسك المنطقي التام إلا هذا الاختيار .

وهذا الاختيار الذى أُلجأنا إليه عدم إمكان التوفيق يدفعنا للنظر فى الأخذ بطريق التفكير الوضعى كلا أو اطراحه كلا . ولقد رأى المحافظون traditionalistes - وأخصهم يوسف ديمتر - هذا الوجه من أوجه المسألة مما دعا كومت للاعتراف لهم بكبير الفضل . وديمتر لا يرى لجمعيتنا سلاماً إلا فى العودة التامة لطريق التفكير الدينى . وهو لذلك يحارب الروح الفلسفية الحديثة فى أصلها وإن شئت فى الأصول المتعددة التى أخذت عنها ؛ فهو يناضل كومت مناضلته فلسفة القرن الثامن عشر التى أخذت عنها ، ولا يراعى لباكون أكثر مما يراعى للوك من حرمة ، ولا يرحم أنصار الإصلاح الأول أكثر من رحمته باكون ؛ ذلك لأنه علم أن القرن الثامن عشر إنما هو النتيجة الشاملة التى جهزها القرنان السادس والسابع عشر ، وأن هذه القضية المنطقية العظمى المخربة ترجع أصولها إلى أعمال التحليل والإفساد التى بدأت منذ القرن الرابع عشر ؛ ولهذا فهو متفق مع نفسه فيما سعى إليه من منازلة هذا العمل الشيطانى لإرجاع أوربا إلى ما كانت عليه حالها العقلية الدينية فى العصور الوسطى ، فإن إعادة سلطان البابا الروحى يقطع الطريق على الفوضى العقلية والخلقية ؛ وهنالك ترجع الكتلحة إلى النفوس أرفع حاجاتها وهى الوحدة .

وهذا الحل يكفى أمام التخيل لمواجهة فروض المسألة . ولكنه غير ممكن

الحصول فى الواقع ، لأن التاريخ لا يرجع إلى منبعه . ويجب إخضاع الأذهان من جديد إلى السلطان الروحى الذى كانت تقبله طوعاً فى العصور المتوسطة أن نعيد حولها مجموع الظروف التى كانت تحيط بها فى ذلك الحين . لكن كيف لنا أن نخرج من التاريخ اكتشاف أمريكا واختراع الطباعة وغير ذلك من الأمور الاجتماعية الكبرى . ثم ما هو السبيل لتجاهل وجود كوبرنك وكبلر وجاليليه وديكارت ونيوتن وسائر مؤسسى العلوم الوضعية . ولئن أمكن المستحيل واستطعنا أن نستعيد الوحدة العقلية والخلقية التى كانت قائمة فى الجمعية المسيحية أيام العصور الوسطى فكيف لنا أن نمنع القوانين الطبيعية التى وصلت إلى حل هذه الوحدة مرة أن تعود إلى مثل ذلك مرة أخرى .

وما دام ذلك غير ممكن فقد أصبح الإنسان مسوقاً حتماً لقبول الحل الثالث والأخير . ما دام التوفيق بين طريق التفكير الوضعية والطريق الأخرى غير ممكن . وما دام السلطان المطلق لا يمكن أن يكون لطريق التفكير الدينية الميتافيزيقية . وما دام واجباً للعقل الإنسانى الأخذ بفلسفة فلم يبق إلا أن تنشأ هذه الفلسفة من طريق التفكير الوضعى وحده . ولا شئء فيما نرى يمنع تحقيق ذلك . بل أن آخر قضايا الروح الدينية الفلسفية ليست من المائة فلا تمحى . وهذه الروح (الخيالية) بماهيتها لا يمكن أن تصح حقيقة يوماً من الأيام . أما الروح الوضعية فليست (خاصة) إلا عرضاً ، ومن الممكن جداً أن تصل إلى العمومية التى تفتقد لها . وإذ ذاك يمكن إقامة فلسفة جديدة تحل معها مسألة (التماسك المنطقى التام) المنشود .

فالصعوبة كلها إذن هى فى تعميم طريقة التفكير الوضعية . ويجب للوصول إلى ذلك أن تمتد هذه الطريقة إلى الظواهر التى لا يزال الناس يتصورونها عادة على طريقة التفكير الدينية الميتافيزيقية . هذه هى الظواهر

الخلقية والاجتماعية ، وسيكون هذا العمل هو الاكتشاف الرئيسي لكومت .
فإنه سينشئ (طبيعة اجتماعية) ويكون بها قد نقي ما بقى للدين وللفلسفة من
سبب في الوجود ، وأقام على أساس من العلم الوضعي فلسفة وضعية كذلك ،
وعندئذ تتحقق (وحدة الفكر) ويكون من أثر هذا التوازن العقلي قيام
التوازن الخلق والتوازن الديني للإنسانية .

قانون الحالات الثلاث

قد يعتبر إنشاء علم الاجتماع في مذهب كومت بدء وغاية في وقت معاً . فإنك لترى الطريقة الوضعية تصل معه من جهة إلى حكم أرقى الظاهرات وأشرفها وأكثرها تركيباً . وهنا يكون علم الاجتماع أرفع مراتب الروح الوضعية ، وبذا يصل إلى أرقى درجات العلوم ، ومن ثم يحكمها جميعاً . ثم إنك من الجهة الأخرى ترى الفلسفة الوضعية وقد أصبحت ممكنة الوجود تنشأ من عنده لتقيم مبادئ الخلق والسياسة .

قال كومت في أول « الدروس » (إن إنشاء علم الاجتماع سيسمح للفلسفة الوضعية أن تكسب صفة العمومية التي لم تكن بعد قد أفادتها وستصير بذلك قادرة على أن تحل محل الفلسفة الدينية والميتافيزيقية التي لا تمتاز اليوم بصفة حقيقية غير هذه العمومية)^(١) . ثم استنتج في آخر « الدروس » ما يأتي : (إن خلق علم الاجتماع أقام اليوم الوحدة الأساسية في مذهب الفلسفة الحديثة كله)^(٢) .

ولقد خلق هذا العلم الذي يرجع إليه كل ما سواه من يوم أن اكشف كومت قانون الحالات الثلاث . فإن إقامة هذا القانون تخرج (الطبيعة الاجتماعية) عن أن تكون مجرد فكرة فلسفية لتصبح علماً وضعياً . ولقد أحس بهذا القانون بل حدده في القرن الثامن تروجو ثم كوندرسية ثم الدكتور

(١) دروس الفلسفة الوضعية جزء ١ ص ١٩ الطبعة الخامسة بباريس . سنة ١٨٩٢ .

(٢) الدروس الجزء الرابع ص ٧٨٦ .

بوردين . ولكن كومت ينسب - على الرغم من ذلك - اكشافه لنفسه . على أنه إذا كان عدلاً أن نعرف لسابقه بما لهم من حق ، فحق كذلك أن نقر كومت على أن أحداً منهم لم يتصور المدى العلمى لذلك القانون وشتان بين مجرد استنباط الوقائع وبين فهم عظيم أهميتها والاهتداء من بينها إلى القانون الأساسى الذى يحكم مجموع تقدم الإنسانية . وإليك كيف يتقدم به كومت فى (فكرة عن الأعمال العلمية اللازمة لإعادة نظام الجمعية - ١٨٢٢) :

(إن طبيعة العقل الإنسانى تقضى على كل فرع من فروع معلوماتنا أن يمز فى أثناء سيره حتماً وعلى طريق التعاقب بثلاث أحوال نظرية مختلفة : الحال الدينية أو التخيلية ، والحال الميتافيزيقية أو المطلقة - ثم الحال العلمية أو الوضعية)^(١) .

ولقد ذكر كومت هذه الفكرة فى الدرس الأول من دروس الفلسفة الوضعية ، ثم أضاف إليها ما يأتى : (وبعبارة أخرى فإن الذهن الإنسانى بطبيعته يستخدم على التعاقب فى كل أبحاثه ثلاث طرائق من طرق الفلسفة يختلف كل منها فى جوهره عن الآخرين بل يعارضهما . فالطريقة الدينية أولاً ثم الطريقة الميتافيزيقية ثانياً والطريقة الوضعية أخيراً . وينشأ عن ذلك ثلاث فلسفات أو مذاهب عامة عن تصوراتنا لمجموع الظواهر تنبئ كل منها ما بعدها . فالأولى هى نقطة البدء اللازمة للعقل الإنسانى ، والثالثة هى حالة الثابتة النهائية وأما الثانية فلم تعد إلا لتكون سبيلاً بينهما)^(٢) .

وكلمتا الدينية والميتافيزيقية يقصد بهما هنا معنى معيناً أدق التعيين فكومت يقصد بالدين مذهباً عاماً فى تصور مجموع الظواهر يرجع قيام هذه الظواهر إلى إرادة الآلة ولا يريد به المضاربات والتفكيرات الدينية

(١) الفلسفة الوضعية ج ٤ ملحق ص ٧٧ .

(٢) الدروس ج أول ص ٣ .

التي يعتبرها الناس عادة علماً منطقيًا أو قدسيًا . بل إنه لا يفكر أقل التفكير في درس الحقيقة الموحى بها . وإنما يشير بهذا الاسم إلى تفسير ظواهر الطبيعة بأسباب تحكيمية فوق الطبيعة . فمعنى الدينى التخلى . وكومت يسمى هذه الطريقة فى التفسير أيضاً « التصورية » أو « المثالية » . وعلى هذا المعنى نراه يتساءل : إذا لم يكن كل منا يذكر أن أفكاره الرئيسية كانت دينية أيام طفولته ميتافيزيقية فى شبابه طبيعية فى رجولته ^(١) . كومت لا يشير فى ذلك إلى ما يأخذه الطفل من التعاليم الدينية عن أهله بل إلى ميله السلى الذى يجعله يفسر الظواهر الطبيعية بإرادات لا بقوانين . إذن فالدين يرادف هنا تصور أسباب الأشياء كأثر قوى ، وهى إن تكن علوية فهى تشابه الإنسان فى تفكيره وإرادته .

كذلك لا يجعل كومت للميتافيزيقى ذلك المعنى الواسع الذى يعطى له عادة ولا يتعرض إلا عرضاً لعلم الموجود فى اعتباره موجوداً ولا للسادة ولا للعناصر الأولى ، وإنما ينظر إليها كوسيلة لتفسير الظواهر التى تنتجها التجارب - فافتراض أثر لتفسير ظواهر الضوء والكهرباء فى الطبيعة هو من أمثلة الميتافيزيقية . ومثله افتراض العنصر الحيوى فى الفسيولوجيا وافتراض الروح فى البسيكولوجيا (علم النفس) . فالميتافيزيقا ترادف الغرض المطلق كما يقول كومت ، وهى ليست فى حقيقتها إلا طريقة التفسير الأولى قد ذهب لونها واعتراها الذبول والذهول وهى تزداد تدرجاً فى ذلك كلما أنتجت زيادة الدقة فى ملاحظة الظواهر الطبيعية التباعده عن إسناد هذه الظواهر إلى إرادات خاصة وإخضاعها لقوانين معينة .

لتحذر إذن من أن نعطى كلمتى (الميتافيزيقا) و (الدين) كامل معنيهما . إذن فلو استنتج مستنتج من قانون الحالات الثلاث أن تدرج الإنسانية يزيداها كل يوم بعداً عن الدين لتنتهى عند حالة أخيرة لا يكون

فيها للدين محل مثلاً لكان ذلك أغرب الخلط في فهم مذهب كومت . فإن تقدم الإنسانية سيسوقها إلى حال ستكون دينية قبل كل شيء وترتب فيها الديانة حياة الإنسان كلها ، ولا نحسب كومت بأى أن يعرف الإنسان بما عرفه كثيرون غيره من أنه حيوان متدين ، وقد يمكن تطوير تاريخ الإنسانية من بعض وجوه تطوراً يسيراً من الديانة الأولى (ديانة عبادة الأصنام) ليقف عند (الديانة النهائية) . لكن الغرض من قانون الحالات الثلاث ليس هو تصوير تطور الإنسانية الديني ، وإنما هو خاص بسير العقل الإنساني ؛ فهو يذكر الفلسفات المتعاقبة التي أخذ ذلك العقل بها في تفسير الظواهر الطبيعية وهو بالاختصار قانون تطور « الفكرة » .

ولا شك في أن الذين أخطأوا الفهم لم ينظروا إلى ذلك القانون إلا في الدرس الأول من « الدروس » حيث ذكر منزلاً عن تطبيقاته . ولكن هذا الخطأ لا يبقى له محل إذا رجع الإنسان إلى الجزء الرابع من « الدروس » حيث وضع ذلك القانون في المكان الواجب له عند الكلام عن الحركة الاجتماعية ، فإذا رجع إلى الدرس الثامن والخمسين من الجزء السادس ارتفع كل إبهام .

على أن تقرير كومت لهذا القانون في الصفحات الأولى من (دروس الفلسفة الوضعية) لم يكن عن غير حكمة . فإن قانون التطور العقلي للإنسانية ، أعنى قانون الحالات الثلاث هو بالنسبة لعلم الاجتماع كما يتصوره كومت القانون الأهم للحركة الاجتماعية ، وبالتالي للعلم الاجتماعي كله . فإن العامل العقلي هو أهم كل العوامل الاجتماعية التي ينشأ تقدم الإنسانية عن تطورها المصطحب المتضامن . فهو بذلك حاكمها جميعاً بمعنى أنها كلها تتعلق به أكثر بكثير مما يتعلق هو بها . وعليه فتاريخ الفنون والأنظمة والأخلاق والحقوق والمدنية على العموم لا يمكن فهمها من غير الرجوع إلى تاريخ التطور العقلي ، أى تاريخ العلم والفلسفة ، في حين

أن هذين يمكن مع شيء من التدقيق فهما من غير الرجوع لما سواهما .
فهذا التطور هو إذن العماد الأهم الذي ترتب حوله باقي أنواع
المظاهر الاجتماعية . والقانون الذي يعبر عنه هو كذلك القانون (الأساسى)
الأول و (الأعم) بالمعنى الذى قصده كومت من هذه الكلمة الأخيرة .
فالإشارة إلى هذا القانون وذكره ، فيه التقدم بتبرير العلم الاجتماعى كله ،
وتدليل واقعى على أن العلم الاجتماعى ليس ممكناً فحسب ، بل إنه موجود
بالفعل ، ومن هنا تلك المكانة العليا التى يضع كومت فيها قانون الحالات
الثلاث .

• • •

يقدم كومت إثبات هذا القانون فى شكلين متغايرين . فهو يستند لذلك
على التاريخ أولاً . والتاريخ يشهد حقيقة أن كل فرع من فروع معلوماتنا
مر هذه الحالات الثلاث من غير أن يرجع القهقرى أبداً . ولئن كان صحيحاً
أن الأكثر منها لم يصل بعد إلى الحالة الوضعية ، فإنه قد لوحظ أن هذه
قد سارت حتى الآن فى الطريق الذى سار فيه غيرها مما وصل إلى تلك
الحالة .

والتحقيق التاريخى يكفى لإثبات ذلك عند الضرورة على شريطة أن
يكون كاملاً ، ولكن كومت لا يكتفى به ويدعى إلى جانبه استنتاج قانون
الحالات الثلاث من الطبيعة الإنسانية . ويتقدم لإثبات ذلك من طريق
مباشر مستقل . بل إنه ليرى التاريخ على ما فيه من حجة ودليل غير واضح
الصورة فى هذا الباب ، ويرى الاستعانة بالبيولوجيا للوصول إلى
الوضوح المطلوب . قال : (يجب أن ندقق فى تحديد العوامل العامة
المختلفة المأخوذة من معرفتنا الطبيعة الإنسانية معرفة مضبوطة والتى جعلت
التعاقب المحتوم للظواهر الاجتماعية غير ممكن اجتنابه من جهة وضرورياً
من الجهة الأخرى ، ما دام نظرنا متجهماً بكله إلى تطورها العقبى الذى يحكم

سيرها العام أكثر من كل ما سواه^(١) .

فلم يكن الذهن الإنساني قادراً أن يبدأ بتفهم الطبيعة إلا على الشكل الديني من أشكال الفلسفة . ذلك لأن هذا النوع هو الوحيد الذى يظهر فجأة ولا يحتاج أن يسبقه غيره . وعليه ترى الإنسان أول ما يتصور القوى يتصورها على مثال نفسه ويتفهم الظواهر يجعلها شبيهة أعماله حيث يحسب نفسه علمياً كيف تنتج هذه الأعمال ، نظراً لما عنده من إحساس بمجهوده وشعور بإرادته . وهذا التفسير التصويرى ملازم لطبيعتنا حتى لزاننا فى كل لحظة على أهبة الاستسلام له . ولو أنا اليوم نسينا النظام الوضعى لحظة وتقنا للبحث عن طريقة حدوث بعض الظواهر ، فسرعان ما يجيئنا خيال مبهم من قوة تشابه قوتنا إلى حد ما . وإن أولئك الميتافيزيقيين الذين يجعلون من الله شخصاً لهم عند كومت أشد من كل أمثالهم ، الذين يدعون معرفة صورة الله ، تمشياً مع أنفسهم .

وما أكثر ما عادت به الفجأة التى يمتاز بها طريق التفكير الدينى من الفائدة . ولا يرى الإنسان كيف كان ممكناً تقدم العقل الإنسانى بدونها . فإن الذهن محتاج إذا أراد تكوين نظرية علمية عن الظواهر الطبيعية إلى ملاحظات يكون قد حصلها من قبل مهما كان من تواضع النظرية المذكورة ، وجزئيتها . لكن الملاحظة العلمية لا تكون ممكنة هى الأخرى إذا لم تكن نظرية أو افتراضاً على الأقل . والتحكم المطلق هو عند كومت عقيم ، بل لا يمكن لدى التدقيق تصوره . وليس لمجرد مجموعات الوقائع مهما قدر لها من كثرة العدد ، أى مدلول علمى بذاتها . مثال ذلك التقارير المشيورولوجية التى تملأ أعمدة القوائم وصحائف المجلدات والتى لن تكون ملاحظات إلا إذا عمل الذهن حين جمعها على تفسيرها مسوقاً بفكرة تحقيق فرض من الفروض ، سواء أكان ذلك الفرض مبهماً أم معيناً وحقيقياً أم خيالياً .

فإذا أخرج الذهن بين هاتين الضرورتين المتساويتين في تحكمهما مع ضرورة البدء بالملاحظة للوصول إلى (صورة معقولة) والبدء بتصوير نظرية آيا ما تكون للوصول إلى استنباط ملاحظات متتابعة لجأ إلى طريق التفكير الديني حيث لا يحتاج تخيل قوى مشابهة لقوته منتشرة في أرجاء الطبيعة لأي ملاحظة تسبق هذا الخيال ، ولكن متى تمخض الخيال عن هذا الفرض تبعته الملاحظة لتأييده أولاً ثم لمخاربه بعد ذلك ، ومن ثم يفسح الطريق ويبدأ تطور العلوم والفلسفة سيره خلال المبادئ تتعاقب بعد ذلك على نظام محتوم .

وذلك هو الحال أيضاً من الجهة الخلقية . فلقد كانت الفلسفة الدينية هي الوحيدة التي استطاعت أول الخلق أن توحى إلى الإنسانية الضعيفة الجاهلة من الإقدام والثقة بالذات ما كفى لإنهاضها من غفلتها الأولى . ولو أن الإنسان علم في تلك العصور ما يعرفه إنسان اليوم من خضوع ظواهر الطبيعة لقوانين لا تبديل لها لما دار في خلده أن معرفة هذه القوانين تجعل له على الطبيعة سلطاناً بل لكان جهله قوة العلم داعية احتلال اليأس نفسه وعجزه دون القيام بأى مجهود . لكن طريقة التفكير الثيولوجية كانت أكثر تشجيعاً . فقد تخيلت الظواهر ممكناً تحويلها وقدرت كل شيء ممكن الحدوث وقررت أن لا مستحيل وأن لا محتوم وأن حدوث شيء أو عدم حدوثه هو رهن بإرادة الآلهة . وإذا كان الإنسان لا يقدر بنفسه من أمر الطبيعة على شيء فإنه يقدر على كل شيء إذا هو نال رضا الآلهة أولى الشهوة الحاكمة ؛ وكذلك كان الإنسان أشد ما يكون ثقة بسلطانه وقوته يوم كان ضعفه وعجزه على أشدهما .

ولقد كانت الفلسفة الثيولوجية لازمة من الوجهة الاجتماعية أيضاً لبقاء الجمعية الإنسانية وتقدمها . ذلك بأن تبادل اشتراك أفراد الجمعية في العواطف وتوافقهم في المصلحة لا يكفي لقيامها ولا لتقدمها ، بل يجب

لذلك اشتراكهم في الإيمان بعقائد معينة . ولا وجود لجمعية إنسانية بغير مذهب مقرر يتضمن أفكاراً مشتركة . ولكن كيف لنا أن نتصور قيام مثل هذا المذهب إذا لم يكن ثمة نظام اجتماعي قائم ؟ تلك حلقة مفرغة أخرى لم يكن للخروج منها سبيل إلا الفلسفة الثيولوجية التي وضعت من بادئ الأمر مبادئ مشتركة يدافع عنها أعضاء الجمعية طراً ويزيدهم في دفاعهم هذا تحمساً أن بها تتعلق آمالهم ومخاوفهم لهذا العالم وللعالم الآخر إن كانوا قد اعتقدوا به .

ولقد كان من أثر هذه الفلسفة الثيولوجية أيضاً أن كونت في الجمعية طائفة معينة اختلفت بالفكر والنظر .

وما أسرع ما قامت هذه الطائفة وانفردت عن سائر الجماعة حتى أقامت التفرقة بين النظر والعمل وتفرقة عادت لا شك بالتقدم العظيم برغم أنها كانت لا تزال صورة غير منظمة . ولا شك أن هذا التقدم كان بطيئاً جداً فإنا لا نزال نرى الناس إلى اليوم لا يقبلون راضين أى جديد لا يرون فيه فائدة عملية قريبة . وقد كان في يد هذه الطائفة بطبيعة وظيفتها سلطة أفادت الاجتماع في تقدمه أثمن الفائدة ، كما أنها كانت تتمتع بالفراغ اللازم للإمعان في البحوث النظرية . قال كومت : (ولولا أن أنشئت هذه الطائفة فجأة لوقفت قوانا وقد أصبحت عملية كلها عند حد من التقدم ما أسرع ما يقتصر على بعض طرق وآلات حربية وصناعية)^(١) . وهذه الخطوة الأولى هي التي استتبع كل ما تلاها من أقسام العمل . فعلمائنا وفلاسفتنا ومهندسون هم أختلاف القسيسين الأولين والسحرة ونذر المطر . إذن فطبيعة الإنسان تقتضى ظهور الفلسفة الثيولوجية فجأة ، وظهورها هذا لا غنى عنه ولا سبيل لاجتنابه . وبعبارة أخرى فهو محتوم ، ويجيء على أثره ما قد نسميه منطق التاريخ العقلي للإنسانية ، ومن ثم تكون

الفلسفة الثيولوجية قد مهدت السبيل للملاحظة الظواهر ملاحظة تدخل إلى العقول رويداً رويداً فكرة السنن الثابتة وتجعل الفلسفة الثيولوجية بذلك محفوفة بالخطر حتى ليجيء عليها وقت تظهر فيه بالية مضرة . هنالك يبدأ الفكر يحل نفسه محل الخيال في توضيح الطبيعة وتفسيرها . وكلما سار هذا التطور إلى الأمام تبين ميل العقل الإنساني إلى طريقة التفكير الوضعية وتفضيله إياها تفضيلاً يصل في مختلف فروع العلوم إلى الاستثارة والتفرد بها بعد خلاف قد يطول أو لا يطول .

والحقيقة أن الحالة الثيولوجية لمعلوماتنا تحوى حتى في تلك اللحظة التي تكون فيها في ذروة السلطان (وذلك يكون بعد قليل من نشأتها) جرائم تحللها وفسادها . وذلك لأنها لم تكن تامة التناسق في يوم من الأيام ، فإن من بين الظواهر ما لم يغلب يوماً على الناس نظامها ولا هم تصوروها يوماً تحت تصرف إرادات مطلقة التحكم ، من ذلك ما ينقله كومت عن آدم سميث حين يلاحظ أن إله الثقل لم يوجد في أى زمن ولا في أى مكان . وكذلك فلقد أحس الإنسان من أول وجود الجمعية بشيء من أثر القوانين البسيكولوجية وذلك لاضطراره أن يتفق مع أمثاله في طريقة الإحساس والعمل . من ذلك ينتج أن البذرة الأولى للفلسفة الوضعية ترجع في القدم إلى ما ترجع إليه بذرة الفلسفة الثيولوجية وإن لم يكن نماؤها وتقدمها قد أبطأ أى إبطاء . ولا لم تكن الفلسفة الثيولوجية لذلك عامة لم تكن إلا مؤقتة . وإنما تكون خاتم الفلسفات أو طرائق تفسير الظواهر الطبيعية تلك التي تنطبق عليها جميعاً وبلا استثناء من أبسطها إلى أكثرها تركيباً . ذلك بأن هذه الفلسفة هي وحدها التي تحقق الوحدة التي لا غنى للذهن عنها .

لكن الانتقال من الفلسفة الثيولوجية إلى الفلسفة الوضعية لا يتم بالطرفة أبداً . فإن التعارض بينهما بين وواضح ، وعقلنا لا يحتمل تغييراً ذلك مبلغه دفعة واحدة . لهذا قامت الحال الميتافيزيقية وسيلة بينهما . وتمتاز

هذه الحال عن الآخرين بأن ليس لها مبدأ معين تعرف به . فبينما نرى الفلسفة الثيولوجية مكتفية بنفسها ذات وحدة متناسقة تبقى لها ما دامت الجرثومة الوضعية الكسبية فيها لم تتحرك ولم تعمل عملها . وبينما ستكون الحال الوضعية تامة التناقض كذلك . إذ الحال الميتافيزيقية ليست في تعريفها إلا خليطاً منهما معاً . قال كومت في سنة ١٨٢٥ : (إن الضرورات الميتافيزيقية ترجع إلى الثيولوجيا والطبيعة جميعاً في وقت معاً أو هي على الأصح ليست إلا الأولى قد حورتها الثانية)^(١) . فالميتافيزيقية في أشكالها الدائمة المتغيرة المستمرة التدرج إنما تقوم بالتوفيق الذي يستدعيه وجود الفلسفتين الثيولوجية والوضعية معاً في النفوس حتى تصل الفلسفة الوضعية حد كمالها . ولقد تسنى للطريقة العلمية أن تتقدم في غزواتها تحت ستار من الافتراضات الميتافيزيقية من غير أن تزعم أنصار الفلسفة الثيولوجية ؛ وفضلاً عن ذلك فإن للميتافيزيقية قوة نقدية غاية في النشاط كان لها فضل غير قليل في دهورة العقائد القديمة ، ولهذا ينظر كومت إلى الأكثرين من فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيين كأحسن الممثلين للروح الميتافيزيقية .

على أنه إذا كان يجب رد هذه الحال الوسط إلى أي من الطرفين فإن كومت لا يتردد في ردها إلى الحال الثيولوجية ، ذلك بأن الفلسفة الميتافيزيقية تحل الوحدات محل الإرادات والطبيعة محل الخالق ، ولكنها تجعل وظيفة وحداتها وطبيعتها مشابهة أكبر الشبه لإرادات الثيولوجيا وللخالق فيها . إذن فتفسير الواقع يبقى الغرض الذي ترمى إليه وإن كان قد أضعفه ذلك الشعور المتزايد بضرورة وجود القوانين الطبيعية . وتكون هذه الطريقة العقيمة بذلك قد استبقت الثيولوجيا وإن كانت قد قتلت الركن العقلي الأهم منها بإنكار نتائجها باسم المبادئ المقررة . ولهذا لم يكن ثمة ما يضمن عدم عودة الصور الثيولوجية عودة عدوانية إذ لم تكن الأفكار الوضعية قد حلت

(١) الفلسفة الوضعية جزء ٤ ملحق ص ١٤٤ .

محلها . وسيرى القارئ أن المعركة الفاصلة بين الروح الثيولوجية والروح
الوضعية ستضم الميتافيزيقيين والإلهيين جميعاً في « مركز التقهقر » مما يحقق
ما قاله كومت من عدم وجود أى تضامن سواء في التاريخ أو في المبادئ بين
الفلسفة الوضعية وتلك الفلسفة السلبية فلا تستطيع الأولى أن ترى في الثانية
إلا تطوراً أخيراً تمهيداً من تطورات الفلسفة الثيولوجية^(١) .

فالحال الميتافيزيقية لا يمكن أن تكون إذن إلا صلحاً غير ثابت .
وبقاؤها إنما يكون رهن باستمرار تغيرها وتبدلها . وإن ما ينشأ عن ذلك
من عدم وجود مبدأ يكون قوامها ليجعلها نقدية بحثة . ومن ثم فلا يكون
لدينا أصلياً إلا فلسفتان أو طريقتان من طرائق التفكير . وهاتان الفلسفتان
الثيولوجية والوضعية هما وحدهما اللتان تسمحان للعقل بإنشاء مذهب
من أفكار منطقية متناسقة يصلح أساساً للخلق وللديانة . فالروح الثيولوجية
خيالية في سيرها ، مطلقة في تصوراتها ، تحكمية في تطبيقها . وأما الروح
الوضعية فتحل طريقة الملاحظة مكان الخيال والأفكار النسبية محل الأفكار
المطلقة . وهي لا تدعى لنفسها سلطاناً لا حد له على ظواهر الطبيعة ، بل
تعلم أن قوتها إنما تقاس على مقدار ما تصل إليه من العلم . وتاريخ الإنسانية
هو الذي يرينا الخطى التي تدرجت هي بها من طريقة التفكير الأولى إلى
الطريقة الثانية .

° ° °

يعتبر كومت قانون الحالات الثلاث ثابت الأساس . وإليك ما كتب
في سنة ١٨٣٩ : (إن سبع عشرة سنة قضيتها دائم التفكير في هذا الموضوع
العظيم مقلباً إياه على جميع وجوهه آخذاً فيه بكل احتياطات ممكنة تسمح لي
أن أقرر من غير أى تردد علمي أن هذه القضية التاريخية ستكون ثابتة أبداً
وأحسبها الآن قد بلغت من كمال الثبوت ما بلغه أى أمر من الأمور العامة

المسلم بها في الفلسفة الطبيعية^(١). ولن يمكن أن تكون يوماً موضع شك إلا إذا عثر الإنسان على فرع من فروع معلوماتنا ارتد من الحال الميتافيزيقية إلى الحال الثيولوجية أو من الحال الوضعية إلى أى من الحالتين السابقتين . لكن ذلك أمر لم يعرض أبداً ، كما أن إثبات هذا القانون من الوجهة النظرية قد دل على أنه لا يمكن أن يعرض مطلقاً .

ولقد أظهر هذا الإيضاح أن تعاقب هذه الأحوال الثلاث في نظام لا يتغير هو السبيل المحتوم لترقى الذهن الإنساني في تعرف الظواهر وأنه حاصل بطبيعة العقل . ومن رأى كومت أن قانون الحالات الثلاث بسيكولوجي بمقدار ما هو تاريخي .

وليس المراد هنا بالبيكولوجيا تلك البيكولوجيا الداخلية التي تستخدم الضمير الفردى وسيلة للبحث . فإن كومت لا يعترف بأية قيمة علمية لهذه الطريقة ، كلابل وهو ينكر إمكان وجودها . على أنه ولو أمكن للشخص أن يلاحظ نفسه لما أفاد ذلك شيئاً فيما نحن بصدده . فإن هذه الملاحظة لن تبين له إلا عن الحال الحاضرة لعقله الفردى لا عن قانون تطور الذهن الإنساني . ولا سبيل لظهور هذا القانون إلا بالنظر إلى الجنس لا إلى الفرد ، وذلك بأن يقلع الذهن عن إنفاق مجهودات عقيمة مرماها أن يشاهد بنفسه حركته ليحيط بوجوه التقدم المتعاقبة التي تظهر فيما أنتج . والتاريخ الفلسفي لعقائدنا وتصوراتنا ومذاهبنا هو ذلك الضمير الذي يجب أن يجعله العقل موضع نظره . ففي هذا التاريخ لا في سواه يرى الفيلسوف القوى التي احتوى ذلك العقل جرثومتها تدخل في الحياة العملية واحدة بعد الأخرى وكلها ترمى إلى « التناسق الدائم » . فإذا ما وصلنا من ذلك لاكتشاف قانون الحالات الثلاث أمكن لنا أن نفهم التطور العقلي لكل فرد من طريقه . ومن ثم يزيدنا درس كل فرد زيادة في التحقق من صحة القانون . قال كومت :

« مهما أكن قد أخذت من النظر إلى الفرد فإن الفكرة الرئيسية التي بنيت عليها نظرتي وما تلا ذلك من تكوّن هذه النظرية وتقدمها إنما يرجع مباشرة لأبحاثي المتعلقة بالمجموع » .

فقانون الحالات الثلاث هو إذن الضابط العام لتقدم العقل الإنساني لا منظوراً إليه في شخص فرد معين ولكن في الشخص العام الذي هو الإنسانية .

وهو ذلك الشخص العام الذي درسه كومت في « نقد العقل المجرد » . لكن طريقته كانت طريقة مطلقة وميتافيزيقية صرفة نظر فيها إلى الشخص العام الذي بحث عن قوانينه على اعتبار أنه العقل الإنساني « لذاته منظوراً إليه من جهة ماهيته » . لكن كومت يخالف ذلك كل المخالفة ويتمثل الشخص العام كأنه وحدة مجسمة تتحقق على الزمن ، ويرى أن بحث قوى الإنسان العقلية لا يصير وضعياً إلا إذا أخذ فيه من الجهتين التاريخية والاجتماعية . ولهذا كان اكتشاف قانون الحالات الثلاث حدثاً عظيم الأهمية جاء مبشراً بالعلم الوضعي في تطبيقه على الإنسانية بشرى يعد تحقيقها الشرط الأساسي لقيام الفلسفة الوضعية . وإن هذا الاكتشاف تأكد فيه « كمال التماسك المنطقي » ببحث كل الظواهر على طريقة واحدة . وهذا القانون من قوانين الحركة الاجتماعية هو حجر الزاوية لكل المذهب الوضعي * .

(*) لمزيد من التفصيل في شرح نظرية كومت وآرائه يمكن الرجوع إلى الكتاب الأصلي -